المبحث الرابع

منابع الفكر الفلسفي الأخلاقي والتربوي لدى مسكويه

المبحث الرابع

منابع الفكر الفلسفي الأخلاقي والتربوي لدى مسكويه

إذا كان لكل فكر من أفكار أياً كان مسمى هذا الفكر مصدر يستقي منه ويعول عليه ، وإذا كان لكل فلسفة أو مذهب أو نظرية أو غيرها من سائر المسميات منابع يرجع إليها ومصادر يعتد بها ، فإن لكل فيلسوف من الفلاسفة منابع يستقي ويستمد منها فكره وفلسفته ، ويتأثر بها ، ويعتمد عليها .

ولو أمعنا النظر في حياة مسكويه وملامح عصره وبيئته وثقافته وفكره ومن تأثر وأثر فيهم على نحو ما سلف بيانه لاستطعنا أن نتعرف على المنابع التي كان لها تأثيرها في تكوين شخصيته الفكرية والفلسفية والأخلاقية والتربوية ويمكننا إجمال هذه المنابع على النحو التالي :

أولاً : تأثر (مسكويه) بالفلسفة اليونانية وفلاسفتهم أمثال (أفلاطون ، وأرسطو ، وجالينوس ، وبريسن أو بروسن) .

ثانياً : تأثره بالتعاليم والآداب الفارسية .

ثالثاً : تأثره بفلاسفة الإسلام .

رابعاً : الشريعة الإسلامية ومزجها بالمنابع السالفة الذكر .

ولنا مع كل منبع من هذه المنابع التي تأثر بها (مسكويه) وكونت شخصيته العلمية والفلسفية وقفة لتوضيحها .

المنبع الأول : تأثره بالفلسفة اليونانية وفلاسفتها .

إذا كان لكل أمة من الأمم تراثها التربوي والأخلاقي والحضاري تفخر وتعتز به على سائر الأمم ، فإن للتفكير الأخلاقي في الفلسفة اليونانية له صورته ووجهته ، وبدت هذه الوجهة جلية من خلال فلاسفة اليونان أنفسهم ومنهم سقراط وأفلاطون وأرسطو وجالينوس وبروسن وغيرهم .

ومن أبرز الفلسفات التي تأثر بها (مسكويه) الثقافة الفلسفية اليونانية حيث عني بالتراث اليوناني ، واهتم بقراءته ، وتعمق وتمكن من فهمه ، والنقل منه في العديد من مؤلفاته ، كما استفاد بها ، ومن ثم عدت الفلسفة اليونانية المنبع الأول ، وأسس فلسفته الأخلاقية ، وقد أقر (مسكويه) في مصنفاته بهذا الاستمداد بل

كان يفخر ويتفاخر ويزهو بذلك وغلب عليه في النقل والاستفادة فكر (أرسطو) حتى غلبت عليه النزعة الأرسطية ويليه جالينوس ثم بروسن الذي تأثر بفكره في تأديب الأحداث ورياضة الصبيان ، أما أفلاطون فإنه يذكره في العديد من مؤلفاته وينقل منه وعنه إلا أن النزعة الأرسطية في فلسفته الأخلاقية قد طغت عليه أكثر من سائر الفلاسفة اليونانيين .

أولاً : تأثر مسكويه (بافلاطون) (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) :

إن مسكويه قدعني عناية بالغة ببعض مصنفات (أفلاطون) ورجع إليها واستفاد منها في العديد من المواضيع الفلسفية والأخلاقية ، وإن كان تأثره به – كما قلت سلفاً – أقل من تأثره بأرسطو ، وكثيراً ما يذكر أفلاطون في العديد من كتبه ، وعندما يستشهد برأيه يشير إلى كتبه كطيماوس أو النواميس ، وكالجمهورية وفيدون وغيرها .

فأشار في كتابه (الفوز الأصغر) إلى كتابي طيماوس والنواميس أثناء حديثه عن ماهية النفس والحياة التي لها .

كما تأثر بكتاب الجمهورية (كتاب السياسة) في حديثه عن قوى النفس الثلاث ، وأمهات الفضائل الخلقية .

وفي كتابه (تهذيب الأخلاق ....) أشار إلى أفلاطون واستشهد به كثيراً .

وفي كتاب (السعادة والخير الأقصى) جمع بين آراء أفلاطون وأرسطو وإن غلبت عليه النزعة الأرسطية (١) .

ثانياً : تأثر مسكويه بالفلسفة الأخلاقية لأرسطو (٣٨٤-٣٢٥ ق.م) :

وإذا كانت الأخلاق عند أفلاطون تتميز بفكرتها وروحانية نزعتها ، فإن فلسفة أرسطو الأخلاقية تعتبر عن جوهرها وتمثل بصفة عامة الآراء التي كانت شائعة بين المتعلمين وذوي الخبرة من أهل عصره ، فليست هي بالآراء التي

---

(١) انظر (أثر أفلاطون في فلسفة مسكويه) د. ناجي التكريتي ص١٦ مجلة المورد العدد٣ ، سنة ١٩٧٣ ، وكذا ص٨٤ ، ٨٥ ، نقلاً من (فلسفة الأخلاق...) د. فتحي الزغبي ص٧٥ ، ٧٦ .

تفسح المجال لنظريات انقلابية كالتي تصادفها في الجمهورية وخاصة فيما يتعلق بالملكية والأسرة (١) .

ولقد تأثر مسكويه أيضاً بالفلسفة الأخلاقية لأرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م) وتعد الأخلاق النيقوماخية المنبع الأساسي الذي يمكن أن تستمد منه فلسفة أرسطو ، وهو من أكبر مصنفاته الأخلاقية حجماً ، وأتمها وأكملها موضوعاً ، وأوضحها وأنضجها دلالة على فلسفة أرسطو طاليس الأخلاقية ، وقد ترجم إلى العربية (٢) ويحتوي على عشر مقالات وضعت في عشرة كتب أو أبواب : أولها : يبحث في الخير الأقصى والسعادة ، والثاني في الفضيلة ، والثالث في الشجاعة والاعتدال ، والرابع يعرض للفضائل الأخرى ، والخامس : يدور حول العدالة ، والسادس : في الفضائل العقلية ، والسابع : في الإفراط واللذة ، والثامن والتاسع في الصداقة ، أما العاشر فيعود فيه إلى البحث في اللذة والسعادة الحقة على الإنسان من حياة التأمل (٣) .

ولقد ورد ذكر نيقوماخيا في المصادر العربية وانحصر فيما ورد في تواريخ العلوم والأطباء والفلاسفة ، كما ورد فيما نقل عنه في المؤلفات العربية ، ويذكر الدكتور فتحي الزغبي : أن مسكويه قد تأثر بهذا الكتاب كما تأثر به عدد من فلاسفة الإسلام كالفارابي وأبي الحسن العامري ، ومسكويه وابن باجة وابن رشد وغيرهم ، حيث قام بعضهم بشرحه والتعليق عليه ، وقام آخرون بالنقل عنه والاستفادة منه .

وقد اتخذ مسكويه من هذا الكتاب منبعاً من منابعه الفكرية والفلسفية والأخلاقية ، ولم ينكر مسكويه اعتماده عليه واستمداده منه بحسب ، حيث بين في كثير من المواضع في كتبه وخاصة في كتابه (تهذيب الأخلاق ...) بل يذكر أنه قد سلك طريقة أرسطو في ترتيب مباحثه الأخلاقية ، وكان منهجه الأخلاقي معولاً عليه ، فوفاء بحق أستاذه أرسطو يقول في كتابه (تهذيب) : وأرسطو طاليس إنما بدأ كتابه بهذا الموضع وافتتحه بذكر الخير المطلق ليعرف ويتشوق

---

(١) (فلسفة الأخلاق) د. توفيق الطويل ص٨٣.
(٢) (الأخلاق) د. عبد الرحمن بدوي ص٤ .
(٣) انظر (الأخلاق) لأرسطو ترجمة اسحاق بن حنين تحقيق د. عبد الرحمن بدوي .

ونحن نذكر ما قاله ونتبعه بما أخذناه أيضاً عنه فيموضع آخر ليجتمع ما فرقه ، ونضيف إلى ذلك ا أخذناه عن مفسري كتبه والمتقبلين لحكمته (١) .

وحينما أراد أن يتحدث عن أقسام السعادة قال : فأما أقسام السعادة على مذهب هذا الحكيم – يعني أرسطو – فهي خمسة أقسام نقلها عنه ، ثم أشار إلى السعادة عند الحكماء الذين كانوا قبل أرسطو كفيثاغورث وسقراط وأفلاطون .

وينتهي إلى أن المراتب التي يترقى فيها صاحب السعادة التامة لا يحصل عليها إلا بعد أن يعلم أجزاء الحكمة كلها علماً صحيحاً ويستوفيها أولاً ... ويرى مسكويه أن من ظن من الناس أنه يصل إليها بغير تلك الطريقة وعلى غير ذلك المنهاج فقد ظن باطلاً وبعد عن الحق كثيراً ويقصد مسكويه بذلك طريقة ومنهاج أرسطو لأن معظم كتاب السعادة يدور على مؤلفات أرسطو وترتيبها وتبويبها وحكمة وضعها وتصنيفها حيث اعتبر أرسطو في ذلك هو المثل الأعلى (٢).

كما تأثر به في اتباع خطواته واحتذاء منهجه ، بل إنه كثيراً ما ينقل عنه في مؤلفاته كالتهذيب والسعادة والفوز الأصغر يجد محاكاة مسكويه فيها لأرسطو واضحة كل الوضوح فقلما يأتي بفكرة أو رأي دون أن يحكي عقبهما أو قبلهما رأي أرسطو في هذا الرأي أو تلك الفكرة ، وبالتأمل لا يجد القارئ أن لا فرق بين النظريتين حتى إنه فيما يقول الدكتور عبد الرحمن بيصار : لا يستطيع باحث أن يقرأ ثم يحكم على ما يقرأ لأيهما ينسب ، ولو جهلنا الترتيب الزمني كما قرره المؤرخون لما استطعنا أن نقول : أيهما الناقل وأيهما المنقول عنه إلا في كثير من التسامح (٣) .

بل إن الدكتور / محمد لطفي جمعة قد انتهى في بحثه عن مسكويه بأن فلسفته مزيج متقن السبك متناسب الأجزاء من الفلسفة اليونانية حسب تعاليم أرسطو حيث يرى أن مسكويه كان رجلاً حكيماً ملماً بفلسفة أرسطـــو مقدساً وممـــجداً له (٤) .

---

(١) تهذيب الأخلاق ص٧٣ .
(٢) تهذيب الأخلاق ص٧٧ – ٨٢ ، ٩١ وانظر لمزيد من الاستفادة (فلسفة الأخلاق عند مسكويه) د. فتحي الزغبي جـــ١ ص٨٤ : ١٢٤ .
(٣) (العقيدة والأخلاق وأثرهما على الفرد والمجتمع) ص٢٦٧ ، ٢٦٨ .
(٤) (ابن مسكويه) ص٣٨٢ .

ثالثاً : وكما تأثر (مسكويه) بأفلاطون وأرسطو نجده أيضاً قد تأثر بمقالة جالينوس الأخلاقية حيث رجع إلى كثير من نصوصها في كتابه التهذيب لتثقيف ملكات النفس كوسيلة لتهذيب الأخلاق ، وفي بعض الأحيان ينقل عنه دون أن يذكره ، ويعتبر جالينوس وفكره الفلسفي الأخلاقي أرسطو ، ثان الفلاسفة بعد أرسو الذين تأثر بهم مسكويه ونقل عنه ، واستفاد من مقالاته الأخلاقية ولاسيما (تعرف المرء عيوب نفسه ، وخيار الناس ينتفعون بأعدائهم) في كتاب التهذيب عند حديثه عن طب النفوس وأشار إلى هذين الكتابين لجالينوس في معرض كلامه عن ضرورة تتبع المرء عيوب نفسه باعتبار ذلك نوعاً من الحفاظ على صحة النفس (١) .

رابعاً : كما تأثر بفلسفة بروسن الأخلاقية في كتابه (التهذيب) ولاسيما ما كتبه في تأديب الأحداث ورياضة الصبيان ، فأكثر ما يتعلق بهذا الباب منقول عن (بريسن أو بروسن) .

فلقد احتوى كتابه (تهذيب الأخلاق ....) ضمن محتوى من مقالات أو أبواب أو فصول ، فصلاً كاملاً في (تأديب الأحداث ورياضة الصبيان خاصة) ثم يذكر فيه أنه منقول ومقتبس من كتاب بروسن ، والمدقق في البحث سيلمس أنه لم يشر أدنى إيماءة لتوضيح مذهبه أو عصره مما يعني دلالة جلية أنه كان معلوماً ومشهوراً ضمن فلاسفة عصره ، كما لم يشر إلى اسم الكتاب الأخلاقي الذي استقى منه ، واعتمد عليه في كتابه هذا الفصل المشار إليه سلفاً .

ورغم الاختلاف في اسم بريسن أو غيرها من المسميات ولكن من المعلوم أن اسمه أعجمي ومن فلاسفة اليونان ، وتؤكد كتب التراث كالفهرست فيذكر أنه روفس وروبس (٢) وترجم القفطي وابن أصيبعة في كتابيهما (٣) على أنه روفس الكبير ، كما يذكر ابن أصيبعة ذكر مقاله له في تدبير الأطفال ولعل هذه المقالة إحدى فصول تضمنت كتابه (التدبير) . وقام الدكتور / كراوس بتصحيح الاسم فذكر أنه (بريمن) وليس برسيس وهذا يعني : أن مسكويه قد أخطأ في ذكره (بروسن) وهنا نجد الدكتور / عبد العزيز عزت يلتمس العذر لمسكويه في ذلك

---

(١) (فلسفة الأخلاق عند مسكويه) د. فتحي الزغبي ص١٣٦ .

(٢)انظر (الفهرست) لابن النديم ص٤٢٠ .

(٣) راجع (أخبار الحكماء) ص١٢٧ ، والفهرست ص٤٠٥ ، ٤٠٦ .

لأن هذا الفيلسوف كان يسمى هكذا في زمانه فقد وجد في آخر مخطوط الخزانة التيمورية (من قول الحكيم بروسن في تدبير المنزل ، رغم أن نفس المخطوط يذكر المؤلف باسم آخر في العنوان: كتاب برسيس في تدبير الرجل لمنزله) (١).

وأهم محتويات هذه الرسالة (تدبير المنزل) : شئون الأسرة والتربية البيتية وسياسة أربابه ، وترمي جميعها إلى أغراض كثيرة مثل : تدبير الزوجة وآداب الصحبة وحسن المعاشرة ، وآداب الإنسان في مأكله ومجلسه وملبسه وسفره وإقامته وإدارة البيت وإعداد المأكل والتمريض وما يتعلق بالآداب العامة للمنزل .

وقد قال مسكويه في كتابه (الفوز الأصغر) : من كمل بسياسة نفسه وتهذيب أخلاقه ، وقمع عدو نفسه الذي بين جنبيه صلح لتدبير منزل ، ومن صلح لتدبير منزل صلح لتدبير مدينة ، ومن صلح لتدبير مدينة صلح لتدبير مملكة (٢) .

ثم يقول د. فتحي الزغبي معقباً لتوضيح المراد بتدبير المنزل : ليس المراد بالمنزل في هذا المقام البيت من الأحجار والأشجار بل المراد التآلف المخصوص الذي يكون بين الزوج والزوجة ، والوالد والولد ، والخادم والمخدوم والمتمول والمال سواء كانوا من أهل المدر أم الوبر ، وكتب علم الأخلاق متكفلة لتبيان مسائل هذا الفن وقواعده (٣) .

ثم دعم قوله هذا ناقلاً عن طاش كبرى زاده بأن الحكماء ذكروا علومهم العملية وبحثوا فيها عن الأعمال الصادرة عن البشر ، وتلك الأعمال إما إن تتعلق بالشخص وحده وهي علم الأخلاق ، أو يتعلق بأهل المنزل لدوام الأنس والائتلاف وهي (علم تدبير المنزل) أو تتعلق بأحوال أهل البلد لنظام أحوال الملك والسلطنة وهي (علم السياسة) .وعلم تدبير المنزل قسم من أقسام الحكمة العملية الثلاثة ومنها : علم تدبير المنزل ، ويتضمن كتاب (بروسن) أربعة أقسام

---

(١) (ابن مسكويه ..) د. عزت عبد العزيز ص٣٦٧ ، (فلسفة الأخلاق عندمسكويه) د. فتحي الزغبي ص١٣٩ – ١٤٠ .

(٢) المرجع المذكور ص٩٥ .

(٣) المرجع المذكور سلفاً ص١٤١ ، ١٤٣ بتصرف يسير .

: حيث يتضمن أمر المنزل ومنه الأول : المال وتدبيره ، والثاني : في تدبير العبيد والخدم ، والثالث : في تدبير امرأة ، والرابع : في تدبير الولد .

ثم توسع (بروسن) في عرضه لهذه الأقسام الأربعة وتبويبها ، والذي أخذه مسكويه من هذه الأقسام هو القسم الأخير وهو الذي يتعلق بأمر الولد فقط ، ويحتوي على تهذيب طباع الصبي بالتربية والعادة ويشير إلى أهمية الحياء في هذا الطبع بعد أن ربط بين هذا القسم والذي سبقه وهو يتعلق بتدبير المرأة حيث قال : إن أفضل الولد ما كان من حرة صحيحة البدن ، صحيحة العقل ، جامعة لهذه الخصال فهذا أول صلاح الولد ، ثم أخذ بروسن يضع الأصول الواجب اتباعها لتقويم بدن الصبي من طعام ونوم وشراب وملبس ورياضة ، مبيناً الآداب التي لابد من التزام الصبي بها في هذه المرحلة السنية فالطبع يغلب التطبع ، وتربية الولد على هذه الآداب من صغره بحيث ينشأ عليها في بقية حياته ثم يبين أهم الفضائل التي ينبغي أن يتحلى بها الصبي والتي يجب أن تغرس في نفسه كالصدق والقناعة والتواضع وأدب الحديث (١) وغيرها من سائر الفضائل التي سنعرض لنماذج منها من خلال طابع الفلسفة الأخلاقية لدى مسكويه في هذه الدراسة .

المنبع الثاني : تأثر (مسكويه) بالآداب والتعاليم الفارسية :

من المعلوم لدى المختصين في الدراسات الأخلاقية أن هناك نوعان من النتاج العربي والإسلامي وهما :

(الأدب الخلقي) ويعرف لديهم بأنه : (الحكمة الأخلاقية اهتم واضعوها بذخيرة أدبية ذات طابع خلقي أو حكمي ، وهي غالباً ما تكون مقتبسة من مختلف المنابع الأجنبية والتراث العربي مضافة إليها قدراً من الأقوال والخواطر الخاصة وتتصف بالسمة الأدبية والبلاغية والتي كانت بلا ريب عاملاً من عوامل رواجها في ساحة المثقفين والأمراء والجمهور .

وقد ذاع هذا النوع من الدراسات في عصر وبيئة (مسكويه) وهو عبارة عن الحكم والجمل القصيرة المصاغة بصوغ الأمثال والحكم ، أو حكايات تنقل

---

(١) انظر كتاب (تدبير المنزل) ص٢٦ ، ٣٣ ، وراجع التفاصيل في تعليقات شيخو وعيسى اسكندر على كتاب تدبير المنزل ص١٤ ، ٣٣ – ٣٨ لمزيد من الاستفادة .

فيها أخبار الملوك ووزرائهم ووعاظهم والحكماء في زمانهم وما جرى على ألسنتهم وهي بعد تحليلها تمثل فلسفة شعبية مشتقة عادة من عادات وتقاليد البيئة ومن نزعاتها الجنسية (١) .

وإذا تأملنا طبيعة الثقافة الفارسية لوجدنا أن هذا اللون من الدراسات الأخلاقية كان شائعاً ومبتكراً من نفسياتهم أو منقولاً عن غيرهم وحين دخل العديد من الفرس الإسلام نقلوا إلى العربية هذه الثروة الأدبية من الحكم والأمثال في شتى مرافق الحياة وعلى رأسهم عبد الله ابن المقفع (ت ١٤٢هـ) وتعد آثاره من أعظم المراجع الهامة لمعرفة تاريخ الفرس القديم وسير ملوكهم وتقاليدهم وآدابهم ، وقد حملته نزعته الفارسية على نقل التراث الفارسي وترجمته إلى العربية لينشر الثقافة الفارسية بين العرب مظهراً مكانة قوية في مجال الحضارة الإنسانية ، ومن المؤكد أن ابن المقفع كان مناوئاً للأديان ولاسيما الإسلام فقال عنه الخليفة المهدي : ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع ، ومات وهو زنديق (٢) ، ومع ذلك فإن جوانب كثيرة عن كتاباته والتي استبعد فيها زندقته – أو تخلى عنها مؤقتاً في حياته – تؤكد مساهمته في تهذيب الأخلاق بطريق العقل لا بطريق الدين ، وقد تأثر (مسكويه) بابن المقفع واشتركا كفارسيين في نقل ونشر الثقافة الفارسية .

وآثار ابن المقفع ومصنفاته تحتوي على موضوعات متباينة قد تكون تاريخية أو اجتماعية أو سياسية أو غيرها وما يعنينا في هذه الدراسة هو الجانب التربوي والأخلاقي ومن هذه الآثار الأخلاقية والتربوية (الأدب الصغير) وفيه عني بتمجيد العقل وتنميته بالعلم ويرى أنه غاية الإنسان وبه يتم صلاح المعاش والمعاد – وهذا بلا ريب مخالف للدين الإسلامي – ثم يذكر أمثلة تأييداً لما صدر به كتابه من أهمية العقل والحاجة إليه في تعلم الأدب والتغذي به (٣) .ويحتوي الكتاب على مجموعة من الأمثال والحكم دون ارتباط بينها معبرة عن تجارب

---

(١) انظر (الفكر الأخلاقي العربي) د. ماجد فخري جـ١ ص٩ ، (فجر الإسلام) د. أحمد أمين ص١١٨ بتصرف .

(٢) (وفيات الأعيان) لابن خلكان جـ٢ ص١٥٢ ، (من تاريخ الإلحاد في الإسلام) د. عبد الرحمن بدوي ص٥٢ ، و(ضحى الإسلام) د. أحمد أمين جـ١ ص٢٢٣ – ٢٢٧ وغيرها كثير .

(٣) (ضحى الإسلام) د. أحمد أمين جـ١ ص٢٠١ .

دينية وأخلاقية واجتماعية ، صيغت في إيجاز في عبارة رشيقة رقيقة ، وقد تكون حكمة فارسية أو يونانية أو حكمة فيها مسحة إسلامية أو حكمة لتجربة نفسية أو سياسية أو اجتماعية أو غيرها ، ومضمون الكتاب بيان الأصول التي يجب أن تقوم عليها الحياة الاجتماعية سلك فيه طريقين : الأول : طريق اقتلاع المساوئ بمحاسبة النفس ومخاصمتها والقضاء عليها ، والثاني : طريق اكتساب المحاسن من ذوي الفضل والعلم والدين والأخلاق فهؤلاء وحدهم يستطيعون أن يساعدوا الإنسان على إصلاح النفس وتهذيب الأخلاق (١) ، ويمثل هذا الكتاب تفكير ابن المقفع السياسي والاجتماعي والتربوي والديني ويرسم صورة واضحة لفكرة وثقافته ، وغرضه كما قال : فيه عون على عمارة القلوب وصقالها ، وتجلية أبصارها ، وإحياء للتفكير وإقامة للتدبير ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق (٢) .

ومن آثار (الأدب الكبير أو الدرة اليتيمة) وقد استوفى فيه الكلام حول موضوعين :

الأول : الكلام على السلطان والولاة ومن يتصل بهما .

وثانيهما : حول الصداقة والصديق وآداب المعاشرة (٣) .

ومن آثاره (كليلة ودمنة) وقد وضعه على ألسنة البهائم والطير لتعليم الحكمة استجماعاً للنفوس وترويحاً للقلوب وليكون الجد في صورة المتعة التي تجتذب إليها العامة وتتسلى بها الخاصة ، وفي هذا الكتاب حكمة الهند وجهد الفرس ولغة العرب ، وهو في أسلوبه يبعث الحكم والأمثال بعقل أدبي أكثر مما هو فلسفي غرضه تهذيب النفوس وإقامة مكارم الأخلاق .

وجملة القول : إن مسكويه قد تأثر به وأفراد للفكر الخلقي الذي يقوم على التفكير الأخلاقي المنظم كتابيه (تهذيب الأخلاق والسعادة) ، ولما وجد هذا اللون ليس مستساغاً لدى جمهور الناس فاتجه إلى الأدب الخلقي ولم ينسى الذوق الشرقي في التأليف الأخلاقي فكتب آخر على هذا النمط وهو جمع الأمثال

---

(١) (عبد الله ابن المقفع) للخراساني ص١٣٠ – ١٣١ – ١٣٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص١٤٠ .
(٣)ضحى الإسلام) جـ١ ص٢٠١ – ٢٠٢ .

والحكم التي يهتدي بها الناس فيحياتهم وهو كتاب (الحكمة الخالدة) (١) ويعد كتابيه السابقين في المجال الأخلاق للخاصة والمتعلمين والأخير للعامة .

ويعتبر كتاب (الحكمة الخالدة) لمسكويه أفضل نموذج للأدب الخلقي الجامع حيث تجرد فيه مؤلفه إلى التقاط جميع ما وجده من وصايا وآداب الفرس وحكمهم ، وحكم الهند ، ثم حكم قدماء العرب من زهاد ومتصوفة وأدباء جاهليين ومسلمين ومنتهياً بحكم فلاسفة اليونان فحكم المحدثين من الفلاسفة والأدباء كالفارابي والعاملي وغيرهم (٢) وهذا ما يؤكد نزعة مسكويه الفكرية والاستمداد والاقتباس من شتى المذاهب الفكرية المختلفة سواء أكانت يونانية أم فارسية أم هندية أم عربية أم إسلامية ،وقد تبحر في الأخلاق الفارسية لحنينه إلى موطنه وأصله الفارسي ، وفي الأخلاق اليونانية لثقافته بها .

المنبع الثالث : تأثره بفلاسفة المجتمع الإسلامي :

تأثره بالفارابي : لقد ولد مسكويه ونشأ وتربى في عصر ازدهرت فيه الفلسفة حيث ولد قبل وفاة المعلم الثاني (الفارابي) بقليل وتوفي الفارابي عام ٣٣٩هـ وولد مسكويه عام ٣٣٠ هـ أو ٣٢٠هـ وهذا يعني أن الفارابي توفي بعد أن ولد مسكويه وهو دون العشرين عاماً ، وإذا كان لم يعاصر الفارابي إلا أنه قد نشأ وترعرع في المدرسة الفارابية والتي تكونت بعد وفاته ونشرت تعاليمه طيلة القرن الرابع الهجري ، وقد ترأس هذه المدرسة أشهر تلامذته وهو (أبو زكريا) يحيى بن عدي اليعقوبي النصراني والتف حوله عدد من التلاميذ كان من بينهم (أبو حيان الوحيدي ، ومسكويه) فقد اتصل مسكويه بيحيى بن عدي وتتلمذ عليه ، وصادقه وزامله فكان بمثابة أستاذ وصديق له حتى وفاته ٣٦٤هـ (٣) .

---

(١) (ابن مسكويه) د. عزت عبد العزيز ص٣٥٤ .
(٢) مقدمة (الفكر الأخلاقي العربي) د. ماجد فخري جـ١ ص٩ .
(٣) انظر (الفهرست) لابن النديم ص٣٨٣ ، وأخبار الحكماء للقفطي ص٢٣٦ – ٢٣٨ .

وإذا كان قد استفاد به في مجال الترجمة حيث اشتهر بها فإنه هو الذي أوحى إليه بتأليف كتابه (تهذيب الأخلاق) (١) ، وإذا كان ليحيى بن عدي كتاباً بهذا الاسم إلا أن منهج وطابع الفلسفة الأخلاقية بينهما مختلفة ، فقد غلب على تهذيب الأخلاق لابن عدي طابع التأثير الفلسفة الأفلاطونية والاتجاه المسيحي ، بينما غلبت على تهذيب الأخلاق لمسكويه النزعة الأرسطية والفلسفة الإسلامية .

ورغم اقترابه بعصر الفارابي إلا أنه لم يتأثر به كما تأثر بفلسفة الكندي ، ولم ينقل عن الفارابي إلا بعض الأمثال والكم المأثورة وجمعها في آخر كتابه الحكمة الخالدة تحت عنوان : كلام أبي نصر الفارابي في وصايا يعم نفعها ، وختم بهذه الأمثال والحكم كتابه (٢) .

يقول دي بور في كتابه (تاريخ الفلسفة في الإسلام) : أن مسكويه أكثر شبهاً – بفيلسوف العرب – بالكندي منه بالفارابي ، ولذلك فإن عدم اكتراث مسكويه بالفارابي يرجع إلى أن الفارابي في كتابه (المدينة الفاضلة) ليس له آراء ذاتية واضحة فيه فهو فيه يوافق أفلاطون تارة وأرسطو تارة أخرى ، وقد يتجاوز أحياناً آراء هما في نزعة تصوفية وزهد لا يقرها مسكويه كما لا يقر النزعة الغالبة الأخلاقية عنده ، لأن الفارابي لا يعني كثيراً بما يقع في المجتمع بالفعل فالأخلاق عنده ترتبط بسياسة تبتعد عن الحياة الواقعية بينما مسكويه يضع الأخلاق أصلاً لتمكن الناس من أن يحيوا حياة سعيدة في المجتمع القائم الواقع (٣) .

وكما تأثر (مسكويه) بفيلسوف العرب أو فيلسوف الإسلام (الكندي) فقد تأثر بأبي بكر الرازي يقول د. فتحي الزغبي : وأما فيما يتعلق بأبي بكر الرازي فإن مسكويه قد عرفه عن طريق كتبه العلمية ثم تأثر به بعد ذلك في المجال الأخلاقي بعد أن تأثر به في مجال الكيمياء والطب ، ولعل تلمذة الرازي على كتب الكندي واعتباره من مدرسة الكندي الفلسفية هي التي قربت بين مسكويه

---

(١) ابن مسكويه د. عزت عبد العزيز ص٣٦٩ ، و(فلسفة الأخلاق ..) د. فتحي الزغبي ص١٥٦ – ١٥٧ .

(١)راجع الحكمة الخالدة من ص٢٢٧ إلى آخر الكتاب .

(٣) المرجع المذكور ص٢١٩ – ٢٢١ – ٢١٨ بتصرف . وابن مسكويه د. عزت عبد العزيز ص٢٠٨ – ٢١٠ .

والرازي حيث اشتركا معاً في التأثر بفيلسوف الإسلام والعرب (الكندي) (١) ، وبذلك يمكننا القول : بأن (مسكويه) قد تأثر في فلسفته التربوية والأخلاقية بل في سائر ما صنف وألف في العلوم الإنسانية بالكندي وتلميذه أبي بكر الرازي .

وهذا إجمال يدفعنا إلى بعض من التفصيل :

تأثر (مسكويه) بفيلسوف الإسلام والعرب (الكندي) (٢) :

لقد ألف الكندي وصنف في الميدان الأخلاقي العديد من الكتب الأخلاقية أشار ابن النديم في كتابه (الفهرست) إليها وسماها بكتب السياسيات وذكر منها : (في الأخلاق ، في سياسة العامة ، في التنبيه على الفضائل ، في تسهيل سبل الفضائل الكبرى في السياسة ، والحيلة لدفع الأحزان .... الخ) (٣) إلا أنها جملتها مفقودة ولم يعثر الباحثون ولاسيما المعنيون بالجانب الخلقي لدى الفلاسفة من هذه الرسائل إلا على رسالة (الحيلة لدفع الأحزان) ورسالته (في حدود الأشياء ورسومها) ورسالة (القول في النفس) والحكم التي يوردها القدماء على

---

(١) فلاسفة الأخلاق عند مسكويه ،جـ١ ص١٥٩ بتصرف يسير .

(٢) الكندي هو أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي ولد في أواخر القرن الثاني الهجري في مدينة الكوفة ثم انتقل إلى البصرة فبغداد ، وأنه عربي صميم حيث يرجع نسبه إلى قبيلة كندة ، ولذا لقب بفيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها ، كما لقب بفيلسوف الإسلام ، وعده العديد من الباحثين بأنه أول فلاسفة الإسلام على الحقيقة ويرون أنه كان متمسكاً بعقائد الإسلام السياسية غيوراً عليها مدافعاً عنها بالنظر العقلي الفلسفي دفاع المقتنع فهو منسجم مع الإسلام ، سائر في تياره أو هو انتهى بالأدلة العقلية إلى ما انتهى به الوحي الإلهي على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد (ﷺ) وتوفي سنة ٢٦٠هـ (٨٧٣م) . انظر الفهرست ص٣٥٧ ، وأخبار العلماء ص٢٤ ، وعيون الأنباء جـ٣ ٢١٧٨ وراجع تفاصيل نشأته وعصره وحياته ، فيلسوف العرب والمعلم الثاني للشيخ مصطفى عبد الرزاق ، وفيلسوف العرب د. ناجي التكريتي ص٤٨ ، ٤٩ ، والتفكير الفلسفي في الإسلام د. عبد الحليم محمود ص٣٢٥ ، والكندي وفيلسوف العرب د. أحمد فؤاد الأهواني سلسلة أعلام العرب ص٣-١٥ .

(٣) المذكور ص٣٦٣ .

لسانه ، وغيرها من الأحكام عن سيرته الفلسفية ، وأخلاقياته كإنسان ، تصحيح معرفة آراءه الخلقية وتكاد تكون كلها ذات دلالة على اهتمامه بالجانب الخلقي أو الجانب العملي للفلسفة .

ويجلي د. أحمد فؤاد الأهواني – في كتابه (الكندي فيلسوف العرب) – الجانب الأخلاقي لدى الكندي بأنها : تتمثل في إصلاح النفس بتحكيم العقل في القوتين الحيوانيتين في الإنسان وهما الشهوة والغضب ، وإذا كان هذا المبدأ الأخلاقي يونانياً حيث أثر عن فلاسفة اليونان (كسقراط وأفلاطون وأرسطو) فإن الكندي قد وفق بينه وبين تعاليم الإسلام الخلقية التي تعتمد على الدين وما أمر الله تعالى به في كتابه من تقوى (١) وقد تأثر (مسكويه) بفيلسوف الإسلام (الكندي) .

وتعتبر رسالته (الحيلة لدفع الأحزان) الرسالة الوحيدة التي تحدث عنها (مسكويه) في كتابه (تهذيب الأخلاق) واستمد منها ، مما يعني دلالة قاطعة على أنها تعد مرجعاً من المراجع التي اعتمد عليها واطلع عليها واستفاد منها وتأثره به في مذهبه ومنهجه الأخلاقي ، ويرى العديد من الباحثين أن الرازي ويحيى بن عدي ومسكويه وابن سينا والغزالي وسائر الفلاسفة الذين جاءوا بعد الكندي قد تأثروا ونهلوا جميعاً من فيضها ، وكانت ركيزة فكرية من دعائم التراث الخلقي العربي الإسلامي (٢) .

ويمكننا بيان ما احتوت عليه هذه الرسالة ، فقد عرف بالحزن وبواعثه وأسبابه ثم الأدوية لدفع الحزن وعلاجه ، وتعطينا ملامح الفلسفة الأخلاقية عند الكندي حيث تبرز اهتمامه بالفضيلة العقلية واعتداله مع نزعة زهدية (تصوفية) معتدلة ، وكون أخلاقه تنظر إلى العالم الآخر ونهيه وإشارته إلى أخلاق العامة من ذوي الدناءة ، وأخلاق الملوك ، ودور السعادة في اكتساب الأخلاق ، وأن القيم بالتالي ليست ذاتية ، كما أبرز أقسام النفس أو قواها العقلية أو الخاصة بالإنسان ويسميها زيادة التمييز النطقي ثم الشهوة والغضب (٣) .

---

(١) المرجع المذكور ص٣١٨ بتصرف يسير .

(٢) (تاريخ الفلسفة الإسلامية) د. ماجد فخري ص١٣٤ ، وفلسفة الكندي ص ٢٧٧ – ٢٧٨ والفكر الأخلاقي العربي د. حسام الألوسي جـ ٢ ص١٥

(٣) (فلسفة الكندي) د. حسام الألوسي ص٢٧٠ .

ويقول د . فتحي الزغبي : إن هذه الرسالة تدل على تجربة عميقة وعلى حرص على السيرة الخلقية الفلسفية الحقيقية بما تقوم عليه من تمسك بخبرات العقل الدائمة التي تمتد إليها يد التغيير والزوال ولا يغلب صاحبها عليها غالب وذلك في مقابل مقتنيات الحياة الزائلة التي تغدو وتروح بحسب تصرف قوانين الحياة ولا تخلو روح الرسالة والأمثلة التي فيها ورواية أخبار الحكماء (١) .

ومصنفات الرازي في الميدان الأخلاقي تجمع بين طب الأجسام وطب النفوس ومن أهم الرسائل التي ألفها كتاب (الطب الروحاني) ويحتوي على عشرين فصلاً هي (فصل العقل ومدحه) ، وقمع الهوى وردعه ، عوارض النفس الردية ، في تعرف الرجل عيوب نفسه ، ودفع العشق واللذة ، ودفع العجب والحسد ، والمفرط الضار من الغضب ، وأطراح الكذب ، والبخل ، ودفع الفصل الضار من الفكر والهم ، وصرف الغم ، ودفع الشر ، والانهماك في الشراب ، والاستهتار بالجماع ، واللوع والعبث والمذاهب ، ومقدار الاكتساب والاقتناء والإنفاق ، ودفع المجاهدة والمكادحة على طلب الرتب والمنازل الدينائية والفرق بين ما يرى الهوى وما يرى العقل ، والسيرة الفاضلة ، والخوف من الموت)(٢) وكتاب (في اللذة) .

أما الأول : فيعرف بطب النفوس غرضه فيه إصلاح أخلاق النفس ويحتوي على عشرين فصلاً ، وقد تأثر بأفلاطون تأثيراً كبيراً وهو يمثل مدرسة أفلاطونية كاملة بين مفكري الإسلام وأن فلسفته أفلاطونية واضحة .

وأما الثاني فقد عني فيه بعلاج النفس ويرى أن لها أثراً فعالاً على صحة البدن ، ولهذا كان مزاج الجسم تابعاً لمزاج النفس ، وأن ما تشعر به النفس م لذات وآلام له صداه على بدن الإنسان ومن ثم نجده ينصح طبيب الجسم ويوجب عليه أن يضيف إلى علمه طب النفوس ويجيز للطبيب المعالج أن يوهم مريضه بالصحة مهما كان المرض مستعصياً لأن النفس تعمل عملها المؤثر في الجسم .

---

(١) (فلسفة الأخلاق عند مسكويه) جـ١ ص١٧٩ – ١٨٠ .
(٢) انظر الطب الروحاني ص١٦ ، ١٧ .

وقد تأثر مسكويه بالرازي في مذهبه في اللذة في كتابه تهذيب الأخلاق وفي رسالته اللذات والآلام (١) وإذا كان قد تأثر به واستفاد منه ونقل عنه إلا أنه لم يتفق معه فيما ذهب إليه الرازي في كافة القضايا ذلك أن مسكويه وإن تأثر بالفلسفة الأخلاقية لديه لكنه كان يدعم نظرياته الأخلاقية بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، فكانت فلسفة الرازي الأخلاقية تعتمد على العقل المجرد وكانت أبحاثه عقلية محضة بينما كانت فلسفة مسكويه الأخلاقية ممزوجة بالـدين (٢) .

المنبع الرابع : تأثره بالشريعة الإسلامية ومزجها بالمنابع السالفة الذكر :

لقد أخرت هذا المنبع عن غيره من المنابع السابقة وذلك لأنني قدمت ما هو غالب على فكر مسكويه فكان الجانب الفلسفي ثم الفارسي ثم تأثره بالشريعة الإسلامية وقد وردت كلمة الشريعة على لسانه مرات عدة تنبئ عن تقديره لها واعتزازه بها ، ويعني بها ، شريعة الإسلام ، كما اهتم فيما ألف وصنف بأهمية الدين في إرساء دعائم المجتمع والدولة على أسس من الأخلاق الفاضلة ، ومدى ارتباط الدولة بالدين وقيامها على تثبيت أركانه في نفوس رعاياها ويرى أن الشريعة هي سياسة الله وسنته العادلة التي بها مصالح العباد في الدنيا والآخرة ، وترسم للإنسان في معاملاته الاعتدال والتوسط وتأمر بالمحمود لأنها من عند الله (ﷻ) ولا تأمر إلى بالخير والسعادة ، وتنهى عن الرداءات وتأمر بالشجاعة والعفة وشتى جميع الفضائل وتنهى عن جميع الرذائل ولذلك فإن المتمسك بالشريعة الإسلامية يكتسب الخير والسعادة من وجوه العدالات كما أن الشريعة هي العامل الأكبر من عوامل العدالة لأنه ناموس الله وهو أكمل النواميس ولهذا وجب أن يخضع له الحاكم في تشريعه والناس أجمعون في معاملاتهم ولأهميتها في نظر مسكويه يدعو الوالدين إلى الأخذ بها في تربية أولادهم لينشأوا على

---

(١) انظر رسائل فلسفية ص١٤٤ – ١٤٥ ، وتهذيب الأخلاق ص٤٣ ، ٤٤ ودراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب ود. عبد الرحمن بدوي ص٩٨ – ١٠٤ ، وابن مسكويه د. عزت عبد العزيز ص١٨٥ ، وفلسفة الأخلاق عند مسكويه د. فتحي الزغبي جـ١ ص١٩٢ – ١٩٦ لمزيد من الاستفادة .

(٢) (ظهر الإسلام) د. أحمد أمين جـ٢ ص١٨١ – ١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٨٩ .

الآداب القويمة والأخلاق الفاضلة ويقول الشريعة هي التي تقوم الأحداث وتعودهم الأفعال المرضية ، وتعد نفوسهم لقبول الحكمة وطلب الفضائل والبلوغ إلى السعادة الإنسية بالفكر الصحيح والقياس المستقيم وعلى الوالدين أخذهم بها وبسائر الآداب الجميلة بضروب السياسات من الضرب إن أحوجوا إليه أو التوبيخات إن عثرت فيهم أو الأطماع في الكرامات أو غيرها مما يميلون إليه من الراحات أو يحذرونه من العقوبات (١) .

وبالرغم من اعتماده اعتماداً كبيراً وبشكل واضح على الفلسفة اليونانية على نحو ما مر بيانه حيث اتخذها المعول الأول في بناء فلسفته الخلقية إلا أنه لم يغفل دينه الإسلامي ، ولم ينس أنه مسلم ، ولكنه مزج ما أفاده من هذه الفلسفة بما تعلمه من أحكام الشريعة الإسلامية محاولاً التوفيق بين الدين والفلسفة ، وباذلاً أقصى جهده في أن يلتزم بأحكام دينه ، ويتقيد بمبادئ الإسلام قدر الإمكان فلم يقبل من هذه الفلسفة ما يتعارض مع الدين في كثير من المسائل الأخلاقية (٢).

وفي هذا الشأن يقول دي بور في كتابه (تاريخ الفلسفة في الإسلام) : أن مسكويه قد خلف مذهباً فلسفياً في الأخلاق لا يزال شأنه في الشرق إلى يومنا هذا وهو مزيج من آراء أفلاطون وأرسطو وجالينوس ومن أحكام الشريعة الإسلامية (٣) . ويجلي د. توفيق الطويل ويؤيد الرأي السابق لكنه يؤكد على أن مسكويه بعث فيما اقتبسه من آراء هؤلاء الفلاسفة روحاً إسلامية لا تخفى (٤) .

ويوضح أيضاً د. أحمد أمين : أن مسكويه كان على ما يظهر متديناً يحافظ على العقائد الإسلامية في أثناء كتابته ولا يقبل من الفلسفة اليونانية والفلسفة الوثنية على العموم إلا ما يتفق والصبغة الإسلامية (٥) .

---

(١) انظر هذه النصوص من كتاب (تهذيب الأخلاق) لمسكويه ص١٠٧ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٣٥ وغيرها .
(٢) فلسفة الأخلاق عند مسكويه . فتحي الزغبي جـ١ ص٢٣٩ .
(٣) المرجع المذكور ص٢٣٩ .
(٤) (فلسفة الأخلاق) ص١٦٣ .
(٥) (ظهر الإسلام) جـ٢ ص١٨٠ .

كما يذكر الدكتور جمال اليازجي : أن فلسفة مسكويه الخلقية كانت توفيقية حيث جمع في كتابه بين الأصول اليونانية والمبادئ الإسلامية وأفرغ مادته في سياق علمي منسجم وبين أنه استوحى في كثير من القضايا التي بحثها أفكاره وآراءه من إيمانه الديني وتربيته الإسلامية واتفق في كثير منها أيضاً مع ما دعت إليه الشريعة الإسلامية وما جاء به الأنبياء عليهم السلام . ثم انتهى إلى أنه قد اجتمعت في فلسفة مسكويه الخلقية ألوان من المقررات الأخلاقية من مثالية سقراط وأفلاطون في تقديس المعرفة وكبت نزوات النفس وطلب الخير الأسمى إلى واقعية أرسطو في كفاية حاجات الجسد وتحقيق مقتضيات المجتمع واعتبار الفضائل الفرعية الجزئية طريقاً مؤدياً إلى الفضيلة المثلى والسعادة القصوى فإلى تقريرية الشريعة الإسلامية في تبيان الحق والإرشاد إلى الخير وإباحة التمتع بما أتيح في الشرع من خيرات الدنيا والحث على التماس رضا الله من أجل الفوز بسعادة الآخرة (١) .

ومما يؤكد السمة الدينية في فلسفة مسكويه الأخلاقية استشهاده بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية فيما ألف وصنف وخاصة في كتابيه (تهذيب الأخلاق) و(الفوز الأصغر) (٢) ثم تجلت الروح الدينية لمسكويه في مبحثي (المحبة والعدالة) حيث حاول التوفيق بين ما ورد من المصطلحات القرآنية وبين ما تعلمه من الفلسفة وربط بين ما فرضه الله سبحانه في الشريعة من عبادات تعبر عن امتثالهم لأمره وخضوعهم لمشيئته وبين ما رآه الفلاسفة من حقوق لله تعالى على الخلق الذين يتمتعون بنعمائه ويعيشون في آرائه (٣) .

وبدت هذه الروح الإيمانية جلية وتؤكد على تأثره بالدين الإسلامي وانفعاله به في مبحث (المحبة الإلهية) وهو المقالة الخامسة من محتوى كتابه (تهذيب الأخلاق) حيث عني ببيان أنواع المحبة وأسبابها وذكر أنه أعلاها محبة العبد لخالقه حيث لا تشوبها الانفعالات ولا تطرأ عليها الآفات ، فإنها إنما تخلص للعالم الرباني وحده خاصة ولا سبيل لغيره إليها إلا بالدعوى الكاذبة وكيف يجد

---

(١) (معالم الفكر العربي في العصر الوسيط) ص٢٩١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ .
(٢) انظر النصوص الدالة على ذلك في كتابه التهذيب ص٢ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، والفوز الأصغر ص٩٩ .
(٣) (فلسفة الأخلاق عند مسكويه) د. فتحي الزغبي ص٢٥٤ – ٢٦٢ بتصرف لمزيد من الاستفادة .

الإنسان السبيل إلى محبة من لا يعرفه ولا يعرف ضروب إنعامه الدالة عليه ووجوه إحسانه المتصلة به في نفسه وبدنه ولذلك فإنه يرى أن مدعي هذه المحبة لله كثيرة جداً والمحققون منهم قليلون جداً بل هم أقل القليل وإن هذه المحبة تتصل بها الطاعة والتعظيم (١) .

كما تجلت هذه الروح الإيمانية وتأثره بها وانفعاله في مبحث العدالة الدينية وما ينبغي على الناس لله تعالى ، ويتلخص فيما يقوم به الناس لرب العالمين على ما ينبغي وبحسب ما يجب عليه من حقه وبقدر طاقته وذلك أن العدل إذا كان إنما هو إعطاء من يجب ما يجب كما يجب فمن المحال أن لا يكون لله تعالى الذي وهب لنا هذه الخيرات العظيمة واجباً ينبغي أن يقوم به الناس وقد علق مسكويه على هذا الكلام بقوله : فهذا ما قاله أرسطو طاليس فأما تحقيق ما قاله مما يجب لله (ﷻ) وإن كان ظاهراً فإنا نقول فيه ما يليق بهذا الموضع : وهو أن العدالة لما كانت تظهر في الأخذ والإعطاء في الكرامات .... وجب أن يكون لما يصل إلينا من عطيات الخالق (ﷻ) ونعمه التي لا تحصى حق يقابل عليه فإذا كان الله سبحانه قد وهب لنا هذه الخيرات العظيمة والنعم السابغة التي لا تحصى الظاهرة منها والباطنة فيجب أن يقابل ذلك منا بضروب من الحمد وأنواع من الشكر تتفق مع عطاءاته وتليق بمقامه ومن لم يفعل ذلك في نظر مسكويه فهو جائر ولم يحقق العدالة التي ينبغي أن تكون بين العبد وخالقه (٢) .

وجملة القول فيما سلف من ذكر للمنابع الفكرية التي أثرت وتأثر بها مسكويه وكونت شخصيته الفلسفية والعملية والتربوية والأخلاقية بل جسدت ثقافته وفكره في حياته العلمية والعملية وفيما ألف وصنف من رسالات ومقالات وكتب وغيرها في فلسفته وبدت هذه المنابع على نحو ما ظهر لك أخي القارئ الكريم متنوعة ما بين يونانية وفارسية وهندية ودينية إسلامية ، ويعد من الفلاسفة الذين عنوا بالتوفيق ومزج الفلسفة بالدين إلا أن الروح الدينية الإسلامية قد تجلت في أسمى معانيها لديه كما سلف في السواد من مؤلفاته ومصنفاته كتهذيب الأخلاق والفوز الأصغر والحكمة الخالدة وعني فيها بالاستشهاد بالآيات

---

(١) انظر النصوص الدالة على ذلك من كتابه (تهذيب الأخلاق) ص١٣٥ – ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩ .

(٢) انظر النصوص الدالة على ذلك من كتابه (تهذيب الأخلاق) ص١١٩ – ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣ .

القرآنية والأحاديث النبوية والذي يؤخذ على مسكويه في هذا الشأن كما يقول د. فتحي الزغبي أمران :

الأول : أنه جمع في النقل بين الأحاديث الصحيحة مع الأحاديث الضعيفة أحياناً بل مع الأحاديث الموضوعة فيبعض الأحيان .

الثاني أنه وضع الأقوال الجامعة التي تشتمل على الحكم الأخلاقية والأمثال السائرة والآداب الفردية والاجتماعية وتلك الأحاديث التي جمعها ضمن حكم العرب حيث قسم مثلاً كتابه (الحكمة الخالدة) إلى حكم الفرس والهند والعرب والروم ، ولذلك فقد بدأ حكم العرب بأقوال النبي (ﷺ) ثم تلاها بأقوال مأثورة عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وأعقبها بجملة من إشارات الصوفية وألفاظ لبعض الملوك الأدباء ومختارات من وصايا لقمان لابنه وأقوال العلماء المسلمين من التابعين ومن بعدهم للحسن البصري ثم يختم حكم العرب بذكر جملة من حكمهم في الجاهلية وحكم متفرقة وكلام لبعض المتصوفة ، وأمثال العرب السائرة وبذلك فإن مسكويه قد خلط بين ما هو من كلام النبي (ﷺ) وبين ما هو من كلام غيره ناهيك عن جمعه بين الأقوال النبوية وبين أقوال أهل الجاهلية ووضع الجميع تحت مظلة حكم العرب وفي ذلك إغفال للسمة والطابع الإسلامي وإضفاء للطابع القومي على هذه الحكم تحت مسمى حكم العرب (١) .

---

(١) (فلسفة الأخلاق عند مسكويه) جـ١ ص٢٥٢ ، ٢٥٣ .

المبحث الخامس

مختارات من

القيم الأخلاقية في فلسفة مسكويه

- الخلق في فلسفة مسكويه
- المقياس الخلقي في فلسفة مسكويه .
- النفس الإنسانية في فلسفة مسكويه .
- قوى النفس في فلسفة مسكويه
- مراتب قوى النفس في فلسفة مسكويه .
- الفضيلة في فلسفة مسكويه .
- الخير والسعادة في فلسفة مسكويه .

تمهيد :

لقد عاش (مسكويه) فترة انقسامات سياسية ، وصراعات مذهبية وتنافسات طائفية وعنصرية ، وحزازات عرقية ، والفتن تطيح برقاب ملوك وأسر ، والتقلبات تغير من تقاليد الحكم والإدارة ، وتمردت القوى المهضومة تتفجر هنا وهناك ، والحكام يتبنون مواقف مذهبية وفلسفية يحاسبون رعاياهم وروادهم على مخالفتها ، والثروات والغنى يتجمعان في أيدي القلة ، وحوانيت الوراقة تصخب بالمؤلفات والمناقشات ، والمنتديات تزدهر فيها المساجلات بين علماء الكلام والفقهاء والشعراء والمتفلسفون والمترجمون يثيرون الفكر والقضايا المتنوعة ، وأدى أيضاً ضعف الخلافة إلى ضعف أثر الدين في نفوس الناس والاستخفاف بشئونه ، وتعرض المفكرون لهزات عنيفة ، وتيارات متلاطمة وصعوبة في تحديد المسار الصحيح واختلف ردود الفعل الفكرية بشتى اتجاهاتها والدينية ، وذاع فساد شتى المناحي الحياتية (السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية وغيرها) حتى انتهى بعضهم إلى اليأس وإحراق كتبهم في ساعة ضيق أو دفنها البعض الآخر أو طرحوها في البحر أو مزقوها وذرتها الرياح ، ووعي الإنسان بمظاهر عصره يجعله يعيش في قلق وتوتر ، فضلاً عن ضعف الوازع الديني في النفوس وتقلص ظل العدل والأمن فكان الكيد والدس والرياء وما إلى ذلك من مظاهر الانحراف والفساد بين الخاصة والعامة وغدت الفضيلة مهيضة الجناح ، قليلة النصراء ، وأصبح للمجون والدعارة أتباع ونصراء كثيرون بين الطائفة التي كان يجب أن يكون لها من الدين شكيمة وعقال ، فعم الفساد والانحطاط شتى مناحي الحياة ولاسيما الاضطراب الديني والفكري بين شتى الطوائف المذهبية والفكرية (١) وقد أبرزنا سلفاً بعض مظاهر الانحلال والتحلل التي سادت عصره وبيئته فارجع إليها من هذه الدراسة لمزيد من الاستفادة .

---

(١) انظر لمزيد من الاستفادة في هذا الصدد (ملامح الفكر التربوي عند أبي حيان التوحيدي) د. حسان محمد حسان ص٢٣٧ كلية التربية بالمدينة المنورة العدد الأول ١٩٨٢م ، (أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث) د. فهمي جدعان ص٤٩ – ٥٠ المؤسسة العربية ط١ سنة ١٩٧٩م ، وابن مسكويه د. عزت ص٧١ – ٧٤ ، و(فلسفة الأخلاق) د. محمد يوسف موسى ٣١٠ – ٣١٢ .

ورغم هذا فإن تياراً فكرياً وسط هذا الزخم الهائل تخطى نزعة المتذهب ومنهم (مسكويه) ليعود بالملائمة على نفسه أولاً ثم يطلع على ثقافات عصره وتعمق في بحثها ودراساتها ونصب نفسه من خلال ما ألف وصنف رائداً من رواد هذا العصر في العلوم الإنسانية ولاسيما الفلسفية والأخلاقية والتربوية والنفسية وإن غلبت عليه النزعة الأرستقراطية إلا أنه حاول مزج الفلسفة بالدين وإن غلبت عليه النزعة الأرستقراطية إلا أنه حاول مزج الفلسفة بالدين وإن غلبت عليه النزعة الأرستقراطية إلا أنه حاول مزج الفلسفة بالدين ، فبدت الجوانب النظرية والعملية في فلسفة مسكويه التربوية والأخلاقية جلية ، وسنعني في هذه الدراسة بإبراز هذه الجوانب وذلك على النحو التالي :

القيم الأخلاقية في فلسفة (مسكويه)

إن المذهب الأخلاقي للفيلسوف صورة مجسدة لمذهبه فيما وراء الطبيعة كما شاع هذا القول في تاريخ الفكر الإنساني ، وبمقدار ما يجهد المربون والمصلحون والفلاسفة وأرباب الفكر أنفسهم في وضع نقط الالتقاط بين العقيدة والسلوك موضع العناية وفي رسم أيسر السبل وأقوم المناهج لتحقيق تضافرها وتعاونهما على تحقيق الاستقامة في نفس الفرد وحياة المجتمع الإنساني كله بمقدار ما يحصلون من سعادة ورقي لهما في مختلف جوانب حياتهما ، بل ويسهمون في أمن وسلام قائمين على العدل المطلق والاحترام المتبادل والتعاون المثمر البناء .

وتلتقي الجوانب الأخلاقية مع الصبغة العقدية في أن كلاً منهما يمثل جانباً من جوانب شخصية الإنسان ، وطاقة من طاقاته الدينية والسلوكية، وكنتيجة لذلك كانت الصلة بينهما وثيقة ، والعلاقة بينهما قائمة على أسس نفسية وعوامل وجدانية وبعضها عقلية ، وسواء أخذت العقيدة بمفهومها العام ومحيطها الواسع الشامل لمختلف العقائد الدينية والاجتماعية والسياسية وغيرها أم قصرت على نوع واحد من هذه الأنواع فلابد وأن ينعكس عنها فكر أخلاقي وتربوي ، وطابع سلوكي محض ، ولابد كذلك أن يكون لها دور حاسم وفعال في صياغة القوانين والمبادئ التي تقام عليها النظريات الأخلاقية أو يشكل على ضوئها تصرف الإنسان وسلوكه في واقع حياته العملية ، إلا أن للعقيدة الدينية لشدة فاعليتها وقوة سلطانها على الأفراد والجماعات لحتلت المكانة الأولى في دائرة النفوذ بين

غيرها من شتى العقائد والأيديولوجيات الوضعية خاصة إذا كانت راسخة تقوم على وحي إلهي يقيني ثابت (١) .

ومن أجل ذلك شاع بين مؤرخي الفكر الإنساني عامة ومؤرخي الجانب الفلسفي منه خاصة مبدأ منهجي يصور لنا الصلة الوثيقة بين العقيدة والسلوك ويجعل من الأولى أصلاً وقاعدة ، كما يجعل من الثاني أثراً وانطباعاً عن الأولى ، وانفصال العقيدة عن الأخلاق واستقلالها بذاتها أمر عسير بل مستحيل ومشكوك فيه .

وكلما اكتشف العلماء والباحثون أطراف هذه الصلة وسبروا غورها سواء في ناحيتها النظرية أم من ناحيتها العلمية والعملية ، كثرت أبحاثهم فيها وتشعبت كتاباتهم عنها حتى تجسمت أمامهم مجموعة من المسائل المتعلقة بموضوع السلوك الإنساني وبرز فيها عدد من النظريات المشتملة على تحديد النظريات والمفاهيم والمشكلات الأخلاقية وتقرير القيم الإنسانية ، ووضع مقاييس نظرية يقاس بها ما يصدر عن الإنسان من أعمال والحكم عليها بأنها خيرة أو شريرة ، فاضلة أو رذلة ، حسنة أو قبيحة ، وكان لابد من أن يستتبع ذلك تحديد معنى كل من الخير والشر ، والتمييز بينهما ، ووضع مختلف الجزاءات للأعمال المتصفة بهما ، وتحديد ماهية الفضيلة والضمير الإنساني ، وكيف يربي على الفضيلة فيتصف بالخلق الحسن ، ويناى عن الرذيلة وغير ذلك من نظريات أخلاقية مما يتضمنه علم الأخلاق .

فهذا العلم يعرف بأنه : العلم بالفضائل وكيفية اقتنائها ليتحلى بها الإنسان والعلم بالرذائل وكيفية توقيها ليتخلى عنها ، والإلمام بقواعد السلوك الإنساني وبالمقياس الذي يقاس به أعمال الإنسان الإرادية فيحكم عليها بأنها خير أو شر مع تحديد الجزاء لكل منهما (٢) .

فهذا التعريف الذي أرجحه على سائر المفاهيم التي أبرزت بأنه (علم الخير والشر) أو علم الإنسان أو علم الواجب والواجبات فهذه وغيرها كثير قاصرة ولا تفي بموضوع العلم ولا غايته .

---

(١) (العقيدة والأخلاق) د. محمد بيصار ص٥ ، ٦ ، ٢٢١ بتصرف يسير .
(٢) (العقيدة والأخلاق) د. محمد بيصار ص٢٢٤ .

وموضوعه : أعمال الإنسان الإرادية الصادرة عن تفكير وروية وكذا الأعمال شبه الإرادية .

وغايته : تحقق السعادة النفسية والطمأنينة القلبية للإنسان ، وتهيئة الحياة الآمنة والعيشة الراضية له فيكل من حياتيه العاجلة والآجلة (الدنيا والآخرة) (١).

ومنزلته : العلوم تنقسم إلى علوم تبحث في الأمور الواقعية أو الموضوعية فهي علوم وضعية تعلم الكيمياء والفلك وعلم النفس ، كما تنقسم إلى علوم لا تصف لنا موضوعاتها على الصورة التي هي كائنة عليها فعلاً ولكنها تبحث فيما يجب أن تكون عليه هذه الموضوعات تعلم النحو والمنطق فإنه يبحث فيما يجب أن يكون عليه الذهن من سلامة في التفكير وهذا النوع من العلوم يسمى علوماً معيارية ، ويعتبر علم الأخلاق من القسم الثاني فهو لا يصف لنا أخلاق الإنسان على الصورة التي هي كائنة فعلاً بل يوضح ما يجب أن تكون عليه هذه الأخلاق ، وهو لا يقف عند حد وصف سلوك الإنسان ولكنه يبحث سلوك الإنسان وأعماله ، ويجلي إن كانت خيراً أو شراً وهل هي تعين على إسعاد الإنسان وبني جنسه أم هي على العكس ، كما يرسم الطريق الذي يؤدي بالإنسان إلى الخير ويصل به إلى السعادة والفضيلة ويبعد به عن الشقاء والرذيلة (٢) .

وينقسم علم الأخلاق إلى قسمين : الأول : جانب نظري ، والثاني : جانب عملي .

فالجانب النظري يختص بدراسة ماهية (الخير والشر ، والحق الجمال وسائر أنواع الفضائل ووضع قواعد السلوك ومقاييس الأعمال وبالبحث في الضمير حقيقته ومظاهره كما أنه يعني بتحديد غاية الإنسان من هذه الحياة وكماله الذي ينشده والذي تتحقق به سعادته) وهذه الدراسة النظرية تعطي الإنسان معرفة بالموضوعات المدروسة ، وهي معرفة ضرورية لأنها تضيء أمامه الطريق في دروب الحياة وتجعله أصدق في الحكم على سلوك الناس وأحوالهم وأعمالهم وأقرب إلى الصواب في تقديره لأخلاقهم وبواعثهم ،وأقدر على نقد الأعمال التي تعرض عليه وتقويمه تقويماً مستقلاً غير متأثر بعاداته

---

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٢) (دراسات في علم الأخلاق) د. محمود مزروعة ص١٠٢٩ بتصرف يسير .

ومألوفاته وما ذلك كله إلا لأن الدراسة النظرية في الأخلاق أدته بالمعرفة الصحيحة التي تجعله نافذ الفكر صادق الحكم ، ناقد بناء لواقع عصره وبيئته فيما يتصل بموضوعات هذا العلم .

أما الجانب العملي منه فيختص بالرقابة لممارسة الجانب النظري ومدى تطبيقه في الحياة الواقعية للفرد والجماعة ، بحيث يكون من شأنه الحكم بمطابقة الفعل أو عدم مطابقته لقانون الأخلاق ، وبموافقته أو عدم موافقته لمعاني الحق والواجب ولمقاييس الأخلاق سواء تعلق ذلك بالفرد أو الجماعة كالبحث في أقوم الطرق لتربية الخلق واستقامة الضمير وتعويد الإنسان على الأفعال الحميدة بتكرارها والإدمان على ممارستها وإبعاده عن نقائضها بهجرها واستقباحها .

والجانب العملي من الأخلاق هو الذي يرسم الطريق للإنسان لكي يطبق سلوكه حسب ما يقتضيه الحق ، وحسب ما يحقق الخير والسعادة له ولبني جنسه .

وهذا الجانب هو الثمرة التي نجنيها من دراسة علم الأخلاق ، فلا ثمرة في دراسة الأخلاق النظرية ما لم تطبق تطبيقاً عملياً في الظاهر والباطن والأقوال والأفعال وعلم الأخلاق في جانبه العملي يمس حياة كل إنسان ويخالط سلوك كل فرد ، فهو يخالط الطبيب في مهنته والأديب في أدبه والحاكم في سياسته والعالم في علمه والعامل في عمله والصانع في صنعته ، كل في ميدان تخصصه ودروب واقع حياته .

ومن ثم ركز المربون والمرشدون والمصلحون على علم الأخلاق في شئون التربية والتهذيب لعنايته ليس فحسب بجانبه النظري بل بالجانب العملي التطبيقي من سلوك الأفراد والجماعات والأمم (١) .

ولما كانت التربية في حقيقتها أخلاقية ، لذا فالبحث في الأخلاق يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتربية ، وذلك أنها تمدنا بتصور فيلسوف التربية للإنسان ، لذا فمن مقتضيات البحث : أن الواجب عند دراسة فيلسوف من الفلاسفة استقراء نظرياته الأخلاقية لما لها من أهمية ذلك أنها تعكس رأيه في طبيعة الجوانب

---

(١) انظر (العقيدة والشريعة) د. محمد بيصار ص٢٥ ، ٢٦ ، (دراسات في علم الأخلاق) د. محمود مزروعة ص١٢ – ١٤ بتصرف يسير .

النظرية والأخلاقية لشتى القضايا التربوية والأخلاقية ، وهذا ما يدفعنا إلى بيان أهم الجوانب النظرية الأخلاقية في فلسفة (مسكويه) وذلك على النحو التالي :

أولاً : ماهية الخلق لدى مسكويه .

ثانياً : المقياس الخلقي في فلسفة مسكويه .

ثالثاً : قواعد السلوك الأخلاقي في فلسفة مسكويه .

رابعاً : مكارم الأخلاق العامة والخاصة في فلسفة مسكويه .

خامساً : المسئولية والضمير والسلوك في فلسفة مسكويه .

سادساً : طبيعة النفس وأغوارها وقواها في فلسفة مسكويه .

سابعاً : الفضيلة في فلسفة مسكويه .

ثامناً : الخير والسعادة في فلسفة مسكويه .

ولنا مع كل مطلب من هذه المطالب وقفة لتوضيحه .

المطلب الأول

الخلق في فلسفة (مسكويه)

لقد أدرك علماء الأخلاق أهمية التمرين والتدريب على سلوك معين عندما عرفوا الخلق بأنه عادة الإرادة أو بأنه تغلب ميل من الميول على غيره باستمرار (١) فهذه تعريفات مجملة وقاصرة في بيان مدلول الخلق ، وأما الفلاسفة الإسلاميون فقد عرفوا الخلق بأنه هيئة راسخة للنفس عنها تصدر الأفعال بسهولة منغير حاجة إلى فكر وروية أو بأنه حال للنفس يفعل الإنسان به أفعاله بلا روية ولا اختيار (٢) .

أو بأنه (غرائز كامنة تظهر بالاختيار وتقهر بالاضطرار) (٣) فالخلق من هذا التعريف استعداد فطري ولكنه يظهر بالاختيار ، فلإدارة الإنسان دور هام ثم إنها في نفس الوقت تقهر بالاضطرار أي بطريق الضبط عن طريق المجتمع وآدابه وعاداته .

وهذه التعريفات كلها من وجهة النظر الأخلاقية تكيف الخلق في حقيقته وفي تكوينه تكييفاً متشابهاً مما يدل على أن الجوانب المختلفة لتفكير المسلمين في هذه الناحية لا تعكس صوراً مختلفة للسلوك الأخلاقي وإنما رغم اختلافها في مناهجها أو في موضوعات بحثها فإنها تنتج عنها أخلاق إسلامية موحدة ونمط للسلوك الإنساني منسق .

وعلى هذا سلك (مسكويه) في فلسفته التربوية والأخلاقية هذا المنهج ولم يحد عنه قيد أنملة فنجده يعرف الخلق بأنه : حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية (٤) .

فالخلق صفة نفسية راسخة وثابتة ودائمة ، ومعنى هذا أن الخلق ليس أمراً خارجياً وبناء عليه فليس هناك علاقة قوية ضرورية بين الخلق والفعل ، فقد يوجد من الشخص فعل معين ومع ذلك لا يكون ذلك الفعل خلقاً له والعكس

---

(١) (العقيدة والأخلاق) ص٢٣٦ .
(٢) (إحياء علوم الدين) للغزالي جـ٣ ص٣٩.
(٣) تعريف للإمام الماوردي انظر رسالته (تسهيل النظر وتعجيل الظفر) ص٥.
(٤) (تهذيب الأخلاق) ص٢٥ .

صحيح ، فقد يسخو شخص ما بقدر من المال مساعدة لفقير ومع ذلك لا يكون من خلقه الجود والسخاء لأن السخاء ليس عادة له وإنما سخاؤه هذه المرة نتيجة ظروف وبواعث معينة والعكس صحيح ، فقد يوجد شخص متصف بخلق الجود والسخاء ومع ذلك لا يصدر عنه سخاء بالفعل نتيجة ظروف خارجة عن نفسه وإرادته كأن يكون معسراً لا يجد ما يسخو أو يجود به (١) .

غير أن قوله من غير فكر ولا روية كما ذهب إليه بعض الفلاسفة على حد قول د. أحمد الشاعر غير دقيق في اعتقادنا : إذ كيف تتأتى إصابة الخلق الصحيح دون فكر أو روية ذلك لأنه يهدم المسئولية الأخلاقية من أساسها والحقيقة والواقع أنه لا مسئولية ولا أخلاق بغير إرادة واختيار ، وما أظن أن فيلسوفنا ... ومن على شاكلته من سائر الفلاسفة – يرغب في ذلك بل يميل إلى – أن تصدر عن علم بها وإرادة واختيار لها وبهذه الأمور عينها تكون المسئولية والجزاء ، وإن إنساناً يصدر في أعماله بغير فكر ولا روية ولا إرادة واختيار لهو إنسان أبله أو سفيه أو مجنون ، ونحن نتساءل كيف يتسنى لمثل هذا الإنسان أن يصيب الوسط الأخلاقي الذي قرره فيلسوفنا كأساس للفضيلة (٢) .

ثم إني أقول : أليست الفضائل أخلاقاً ، فكيف لا تتحقق الفضيلة إلا بفكر وروية ولا يتحقق ذلك في الأساس الخلقي ؟!!

يقول الأستاذ أبو بكر ذكري في هذا الشأن :

إن الفكر والروية لابد منهما لصحة العمل الأخلاقي غير أن قواعد علم النفس الرفيعة لم تكن اتضحت لعصرهما (يعني مسكويه والغزالي) وغيرهما ، لقد ظن الإمامان أن السهولة واليسر يلزمهما عدم الفكر والروية وفاتهما أن الفكر والروية يعقبان الانفعال وتنزع النفس إلى العمل بسرعة كلمح البصر ، ولو أن الفكر والروية أدركا أن الإنفاق هنا وهناك غير لائق لامتنعت النفس عن الإنفاق دون أن يطعن ذلك فيخلق الكرم ، إن أي عمل يدل على خلق صاحبه لابد من إنفاذه أو عدمه من فكر وإدراك لوجه المصلحة قبل الشروع في الفعل ، فقد يكون الإعطاء واجباً وقد يكون حسناً ، وقد يكون سفهاً وسرفاً وقد يكون الإقدام

---

(١) (دراسات في علم الأخلاق) د. محمود مزروعة ص٣٠ بتصرف يسير .
(٢) (مناهج البحث الخلقي في الفكر الإسلامي) ص٢٢٤ .

واجباً وقد يكون تهوراً وإلقاء بالنفس إلى التهلكة وليت شعري ، كيف تتأتى إصابة الخلق القويم والصحيح دون فكر أو روية (١) .

ويتكون هذا الخلق في النفس الإنسانية نتيجة عدة عوامل مؤثرة فيها إيجاباً وسلباً لعل من أبرزها كما وضعها المختصون بعلم الأخلاق (العادة ، والبيئة ، والوراثة) فأولاً : الخلق يتكون بالممارسة والاعتياد وبكثرة تكرار الفعل والمواظبة عليه ولهذا عرفوا الخلق بأنه عادة الإرادة ، وهذا التكرار والعادة قد يكون له تأثيره في نفس إنسان دون آخر ولكن للعادة تأثير في طبيعة الإنسان الخيرة فالسخاء والجود وغيرها من سائر الفضائل إذا كانت عادة لازمة وملكة راسخة تكفل صدور فعل السخاء عن نفسه راضية مطمئنة وقلب مؤمن بأوامر دينه الإلهي فإنه يصدر هذه الفضيلة عن استذاله واطمئنانه وانشراح صدره به فضلاً عن مثوبته في الدنيا والآخرة من الله (ﷻ) .

وفي هذا الشأن يحدثنا مسكويه مبيناً العوامل المؤثرة في تكوين الخلق في طبيعة نفس الإنسان ومنها العادة فيقول : ومنها (الحال النفسية ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ثم يستمر عليه أولاً فأولاً حتى يصير ملكة وخلقاً) (٢) .

ويقول ابن خلدون : إن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من الحضر وأصله أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه ، فالذي ألفه في الأحوال حتى صار خلقاً وملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة (٣) .

ثانياً : البيئة والوراثة : فالعادة وحدها ليست هي العامل الأول في تكوين الخلق وتربية الإنسان على حب الفضائل واقتنائها وكراهية الرذائل واجتنابها ، وإنما يجانبها عاملان آخران لا يقلان عنها أثراً بل ربما يفوقانها ويزيدان عليها هما :

عامل الوراثة : وهي انتقال بعض صفات الأصل إلى الفرع قل ذلك أم كثر ، وهذه الخصائص الوراثية التي يرثها الفرد عن الأصل كثيرة يمكن إرجائها إلى وراثة خصائص جسمية ن وعقلية ، وخلقية ، ويمكن تقسيمها إلى

---

(١) (مواقف مع الغزالي) أبي بكر ذكري ص٣٥- ٣٦ طبعة سنة ١٩٦٠م .
(٢) راجع (تهذيب الأخلاق) لمسكويه) .
(٣) مقدمة ابن خلدون ص١٢١ .

خصائص فطرية أو مكتسبة والراجح من الآراء في وراثة الخصائص المكتسبة هي كما يقول د. محمود مزروعة أن الوراثة تكون في الخصائص الجسمية والعقلية أما وراثة الأخلاق فنحن لا نقول إطلاقاً بأن أخلاق الوالد تنتقل إلى الولد عن طريق الوراثة ولكنها إن وجدت في الولد فليس ذلك عن طريق الوراثة كما قد يظن ولكنه ناتج عن البيئة وأسلوب التربية ، فليس هناك أساس للقول بأن الأخلاق تورث ، هذا بالإضافة إلى أن القول بأن الأخلاق تورث كما تورث الصفات الجسمية يهدم الحكمة من الأديان ويبطل جدوى التربية والتهذيب ودور التعليم ويعفي على أثرهما ، لأنه ما دامت الأخلاق تورث كالخصائص الجسدية فلا أمل في تغييرها ولا طمع في تحسينها ، وأكثر م ذلك أن القول بوراثة الأخلاق يهدم المسئولية الشخصية التي هي أساس الحساب والثواب والعقاب ، إذ أساس المسئولية الفردية هي الحرية في الاختيار والقاعدة الأخلاقية تقول : لا واجب على من سلب الحرية ، فإذا وجد شخصان ورث أحدهما عن أبيه الأخلاق الفاضلة وورث الآخر عن أبيه الخلاق السيئة فأي فضل للأول ؟ وأي وزر على الآخر ؟ إن العدل يقتضي ألا يثاب الأول أو يعاقب الآخر ما دام الأمر كله موكول للوراثة ومادام المرء أمام الوراثة مجبوراً لا حرية له (١) ، ثم إن القاعدة الشرعية تقول : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (٢) .

ومن العوامل المؤثرة أيضاً في تكوين الخلق :

عامل البيئة : وهي كل ما يحيط بالإنسان أو يؤثر فيه بطريق مباشر أو غير مباشر منذ كان جنيناً في بطن أمه حتى يوافيه أجله المحتوم ، فكل ما يؤثر في الإنسان أو يعمل على تكييفه وتكوين صفاته يعد بيئة له ، وعاملاً م عوامل تكوينه الخلقي سواء كان ذلك بيئة طبيعية أم اجتماعية ، والذي يحكم تأثر الإنسان بالبيئة في مختلف صورها قانونها العام الذي لا يختص بالإنسان وحده وإنما ينطبق على كل كائن حي وهو تكييف الكائن الحي نفسه حسبما يحيط به ليعيش (٣) .

---

(١) دراسات في علم الأخلاق ص٣٥ – ٣٧ بتصرف يسير .
(٢) سورة الأنعام : الآية (١٦٤) .
(٣) (العقيدة والأخلاق) ص٣٩ ، ٤٠ .

ومن العوامل المؤثرة أيضاً في تكوين الخلق :

عامل المزاج الشخصي أو التكوين النفسي : يرى جمهور الباحثين أن المزاج هو مجموعة الخصائص الفسيولوجية التي تؤثر في الخلق أي أنه نتيجة للكيفية التي يمتزج بها ما في جسم الإنسان من عناصر كيماوية (١) .

ونظراً لأن المزاج له أهمية كبيرة في تكوين شخصية الإنسان وأخلاقه فقد عني بدراسته الباحثون الذي قسموا الناس بالنظر إلى اختلاف الأمزجة إلى أنماط أربعة :

الدموي : ويمتاز بأنه متفائل ومرح ونشيط .
الصفراوي : ويمتاز بالعنف والصلابة وسرعة الغضب .
السوداوي : ويمتاز بأنه كثير التأمل دائم الاكتئاب والتشاؤم .
البلغمي : ويمتاز بأنه سطحي وخامل وبليد وشره .

وهذا العامل مزيج من العوامل الوراثية والبيئية معاً التي تؤثر في تكوين الخلق في طبيعة الإنسان (٢) .

ومن ثم فالخلق لدى مسكويه استعدا فطري سواء غلب على هذه الأخلاق الحسن أو القبح فالإنسان مطبوع على استعدادات لا تحمد كلها ولا تذم كلها بمعنى أن لديه الاستعداد لإتيان المحمود والمذموم سواء بسواء ولذا فالأخلاق في طبيعة النفس الإنسانية لا تنفك عن الطبع والغريزة وهناك عوامل أخرى تؤثر في تكوين الخلق وهي عوامل مكتسبة من البيئة ، والوراثة ومن المزاج الشخصي أو التكوين النفسي ، وكذا العادة ، وطبيعة الإنسان محايدة لا هي بالخيرة ولا هي بالشريرة ، والإنسان مجبول على غرائز وطبائع منها ما هو مذموم ومنها ما هو محمود وقابلة لفعل الخير والشر واكتسابهما ، والنفس تكتسب من الفضائل والأفعال بناء على الاستعداد الذي فطرت عليه .

والتربية والتأديب عامل مهم في مجال الأخلاق ، فهي على نوعين غريزية ومكتسبة وكل منهما محتاج للآخر والأخلاق لا تنفك عنهما فهي بمنزلة الروح والجسد ، وكما لا يظهر أعمال الروح إلا الجسد ولا ينهض الجسد إلا

---

(١)(مشكلات فلسفية) د. توفيق الطويل وآخرون ص١٧٤ .
(٢) نقلاً عن دراسات في علم الأخلاق ص٤٢

بحركة الروح كذلك الغريزة والاكتساب يتقابلان في الفعل ويتشاركان في الفضـــل .

وفي ذلك يقول (مسكويه) قال بعضهم : من كان له خلق طبعي لم ينتقل عنه ، وقال آخرون : ليس شيء من الأخلاق طبعياً للإنسان ولا نقول إنه طبعي وذلك أنا مطبوعون على قبول الخلق بل ننتقل بالتأديب والمواعظ إما سريعاً أو بطيئاً وهذا الرأي الأخير هو الذي نختاره لأننا نشاهده عياناً ولأن الرأي الأول يؤدي إلى إبطال قوة التمييز والعقل وإلى رفض السياسات كلها وترك الناس همجاً مهملين وإلى ترك تربية الأحداث والصبيان وما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم وهذا ظاهر الشناعة جداً (١) .

ومن ثم نرى مسكويه يقرر : أن من الأخلاق ما هو طبعي فطري ومنها ما هو مكتسب ، وما هو مكتسب يتغير ويخضع للتغيير بفعل التربية ، يرى د . أحمد الشاعر : أن رأي ابن مسكويه يتفق وما قرره أرسطو ولا يتفق مع ما رآه جالينوس في شيء وإلا وقع التناقض في مذهبه ، وذلك لأنه رأى قبلاً أنه لا شيء من الأخلاق طبعياً وعلى هذا قرر قبول الأخلاق للتغيير وهذا لا يتفق بأية حال من الأحوال مع رأي جالينوس القائل : بعض الناس خيار بالطبع لا ينتقلون إلى الشر وبعضهم أشرار بالطبع وهم كثيرون ولا ينتقلون إلى الخير والبعض بين هؤلاء وهؤلاء يقبلون التغير فينتقلون إلى الخير والشر ، وإذا كان مسكويه في مستهل هذا الموضوع وقبل أن يقرر ما اختاره قال : إن من الأخلاق ما هو طبعي متأصل المزاج إذا كان قال هذا فإنه لا يشده إلى جالينوس لأن تغير أهل المزاج أخرجه عن الفطرية ولأن المزاج حالة للجسم نتيجة عوامل مختلفة يمكن تغيره بالإرادة والتربية (٢) . وهذا خلاف ما ذهب إليه د. عبد العزيز عزت في كتابه (ابن مسكويه) والذي قال : إن مسكويه في فكرته ورأيه بقبول الأخلاق للتغير متأثر بآراء جالينوس في الأخلاق (٣) .

وقد استند إلى هذا بقوله أن مسكويه قال : أن من الناس من هو خير بالطبع وليس ينتقل هؤلاء إلى الشر ومنهم من هو شرير بالطبع وهم كثيرون

---

(١) تهذيب الأخلاق ص٣٦ .
(٢) (مناهج البحث في الفكر الإسلامي) ص٢٢٧ ، ٢٢٨ .
(٣) (ابن مسكويه) ص٣١٧ .

وليس ينتقل هؤلاء إلى الخير ومنهم من هو متوسط بين هذين وقد ينتقلون بمصاحبة الأخيار ومواعظهم إلى الخير وقد ينتقلون بمقارنة أهل الشر وإغوائهم إلى الشر .

والذي نراه أن هذا الذي نقله د. عزت عن مسكويه ليس رأياً لمسكويه ولا فكرة له وإنما هو من عرض آراء وجهات نظر الفلاسفة في وراثة الأخلاق فقد عرض لوجهة نظر جالينوس ، ثم عرض لرأي الرواقين : وأنهم يرون أن الناس كلهم أخيار بالطبع ثم عرض لرأي جالينوس ورأي أرسطو الذي يتفق وما رآه (١) .

وأختار وأميل ما ذهب إليه د. محمود مزروعة في هذا الصدد (أما وراثة الأخلاق فنحن لا نقول إطلاقاً بأن أخلاق الوالد تنتقل إلى الولد عن طريق الوراثة ولكنها إن وجدت في الولد فليس عن طريق الوراثة كما قد يظن ولكنه ناتج عن البيئة وأسلوب التربية ، فليس هناك أساس للقول بأن الأخلاق تورث هذا بالإضافة إلى أن القول بأن الأخلاق تورث يهدم الحكمة من الأديان ويبطل جدوى التربية والتعليم ويعفي على أثر التأديب والتهذيب ومادامت الأخلاق تورث فلا أمل في تغييرها ولا طمع في تحسينها واكثر من ذلك إن القول بوراثة الأخلاق يهدم المسئولية الشخصية التي هي أساس الحساب والثواب أو العقاب إذا أساسها هي الحرية في الاختيار ... (٢) وقد سبق أن أشرت إلى هذا الرأي .

---

(١) (تهذيب الأخلاق) ص٣٦ .

(٢) انظر (دراسات في علم الأخلاق) ص٣٥ – ٣٧ لمزيد من الاستفادة .

المطلب الثاني

المقياس الخلقي في فلسفة مسكويه

بعد أن وضحنا مدلول الخلق لدى مسكويه وطبيعته والعوامل المؤثرة فيه ورأيه في قبول الأخلاق للتغير نرى فما هو المقياس الخلقي في فلسفته ؟

وللإجابة عن هذا التساؤل تتجلى في الكمال الإنساني الذي يحقق السعادة للفرد والمجتمع ، ومبني هذا عند مسكويه على فكرة الغائية والكمال في الموجودات فهو يرى أن لكل موجود كمالاً يخصه ، وفعلاً لا يشاركه فيه غيره ، وبه تتحقق سعادته وسعادة الإنسان تكون في صدور أفعاله الإنسانية بحسب تمييزه ورويته (١) ، وهكذا الكمال الإنساني لا يكون إلا بالعقل الذي هو فيما يرى مسكويه (رسول الله تعالى الأول إلى خلقه) (٢) .

وبهذا الكمال تكون إنسانية الإنسان ومقياس أفعاله الإنسانية كما يرى مسكويه بعد ذلك فيقال : أن فلاناً أكثر إنسانية من فلان (٣) .

يقول د. محمد بيصار : حينما نظر الحكماء والفلاسفة في غاية الإنسان وكماله الذي وجد من أجله تبين لهم أن له كمالين : قريباً وبعيداً ، ولم يستخرجوا ذلك من الإنسان فحسب ، بل أوجدوه أيضاً في الصناعات والطبيعة ، فكما أن الكمال القريب للمطرقة أن تبسط الأجسام الصلبة فكمالها البعيد أن تتم بها صناعة الخاتم مثلاً ، وكما أن المعدة كمالها القريب في أن تطبخ الطعام بعد احتوائه ، فكمالها البعيد أن ترد على البدن العوض مما تحلل منه ليتم له البقاء وبذلك تم لهما الكمالان اللذان في الإنسان .

ويرى (مسكويه) أن كمال الإنسان القريب في صدور أفعاله عن روية وتمييز وترتيبهما بحسب ما يوجبه العقل ، ولكننا لو نظرنا في تلك الروية وذلك التمييز لوجدناهم يصدران عن قوة أعلى منهما ، ولو تتبعنا الموجودات شيئاً بعد شيء لانتهينا إلى غاية ليس بعدها غاية ، إذ لو كان لكل غاية غاية للزم التسلسل

---

(١) (تهذيب الأخلاق) ص١٧ .
(٢) (الفوز الأصغر) ص٦٢ .
(٣) (تهذيب الأخلاق) ص٣٤ .

وعدم النهاية وما لانهاية له محال وجوده وهذه التي لا غاية لها تسمى الغايات كما أطلق عليها أرسطو .

والغايات التي دونها كلها مرتبة دونها كالدرج والمراقي بعضها دون بعض إلى أن تصل لمرتبة لا يكون فيها الإنسان إنساناً بل هو بالحيوان أولى وأجدر والناظر في الكمال القريب للإنسان يجد الناس مختلفين فيه ، وهم مع اختلافهم هذا لا يشكون في أن لهم غاية ، وإنما اختلفوا في أي الغايات هي ؟ وكل واحد قد جعل لنفسه غاية يسعى لتحقيقها ويدأب جاداً في تحصيلها ، فمنهم من رآها : اللذة , منهم من رآها : الثروة ، ومنهم من رآها : الصحة أو العلم أو الغلبة أو غير ذلك من رغائب النفوس ومطامحها . وغنما اختلفوا في ذلك لأنهم لم يلحظوا الكمال البعيد للإنسان وهو السعادة القصوى ، بل غفوا عنه ، وشغلوا أنفسهم بما هو دونه .

ولو عرف الناس الكمال البعيد (السعادة القصوى) وجعلوه غرضاً لهم لما اختلفوا فيذلك ولسعوا بسائر الأغراض والمطامح نحوه وذلك كما يفعل الصائغ إذ عرف أن كمال المطرقة البعيد هو في صناعة التاج أو الخاتم أو السوار فإنه ولا شك يبسط الجسم الصلب بكيفية توصله إلى ذلك من أقرب طريق وأسلك سبيل ، ومما ذكرناه في غايات الناس ورغباتهم ما يسمى سعادة على طريق التجوز ومنه ما هو سعادة على الحقيقة ومنه ما هو مظنون سعادة وليس بسعادة البتة ، وبيان ذلك :

إن ما كان عاماً للإنسان فليس سعادة لنا لأنه ليس غايتنا وكمالنا من حيث نحن أناسي ، وأما ما كان خاصاً بالإنسان من حيث هو إنسان فيجوز أن يسمى سعادة إلا أن هذا المعنى هو عام لجميع الناس وفي هذا السعادات الخاصة بالإنسان منها ما يكون الناس مشتركين فيه جميعاً ومنها ما هو خاص بإنسان إنسان ومنها ما هو خاص الخاص وهو الذي ترتقي إليه السعادات وعنده تقف جميعها فمن أجلها وجدت السعادات وبسببها كانت وهي الغرض الأخير والكمال الأقصى .

السعادة المشتركة بين الإنسان والحيوان : ومظاهر السعادة هي المأكل والمشرب وجميع ضرورات الراحات واللذائذ الجسمانية وما أشبهها وهذا ما يسميه السواد الأعظم من الناس (باللذيذ) وليس هذا في الواقع كمال الإنسان الذي خلق من أجله ، فليس على الحقيقة سعادة له ، فقد تنال البهائم من هذه الأشياء